جمالية تيمة "المدينة" في الرّواية الجزائرية المعاصرة
"الرّماد الذي غسل الماء" لجلاوجي أنموذجا

The aesthetic theme of "the city" in the contemporary Algerian novel "The ashes that washed the water" by Jalawji as a model

زكرياء قارة عشيرة*

جامعة ابن خلدون – تيارت–،

مخبر الخطاب الحجاجي – أصوله ومرجعياته وآفاقه–

Karachirazaki@gmail.com

علي مداني

جامعة ابن خلدون – تيارت –،

مخبر الخطاب الحجاجي – أصوله ومرجعياته وآفاقه –

Madaniali2010@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2023/01/02 تاريخ القبول: 2023/04/90. النشر:2023/05/31

ملخص:

تتغيّأ هذه الدّراسة الكشف عن المكوّنات الفنّيّة والسّمات الجمالية لفضاء المدينة في رواية "الرّماد الذي غسل الماء" لعزّ الدّين جلاوجي، وهذا باعتبار المكان فضاء سرديّا له من الأهمّية ما له في تكوين الصورة السّرديّة، من خلال علاقاته مع العناصر الأخرى للسّرد، فالمكان كعنصر سرديّ يؤثّر ويتأثر ببقيّة العناصر السردية من زمان وحدث وشخصيّات، كما ستهدف هذه الورقة البحثية إلى الكشف عن التجليّات الشعرية لعنصر المكان في أحداث الرواية المذكورة سلفا، هادفين من خلال ذلك إلى استقصاء الجمالية واللمسة الشّعريّة التي يضفيها فضاء المدينة للمتخيّل السّردي العام.

وعلى هذا الأساس نطرح الإشكالية التالية:

– كيف تجلّت تيمة المدينة في الرّواية النّموذج؟ وما الدّلالات التي تقدّمها إضافة للمتخيّل السّردي العام؟

للإجابة على هذه الإشكالية حاولنا من خلال البحث عرض نتف مفاهيمية حول ماهية المكان وأنواعه مع تسليط الضوء على المكان المفتوح الموافق لتيمة المدينة، لنستقصد بعد ذلك استجلاء السّمات الجماليّة والشعرية لتيمة المدينة في رواية الرّماد الذي غسل الماء، وقد اعتمدنا في دراستنا على الدّراسات السّابقة التي تصبّ في باب شعرية المكان في الرّواية نظريا وعلى رواية الرّماد الذي غسل الماء في الجانب التّطبيقيّ، لنتوصّل ختاما إلى جملة من النّتائج لعلّ أهمّها:

– المكان عنصر حكائيّ ومكوّن هامّ من مكوّنات البنية السّردية.

– جمعت تيمة المدينة كفضاء روائي في الرّواية النّموذج بين معاني التيه والضياع والفساد والانحلال والبطش والظلم.

– شخّص المؤلّف من خلال الدلالات التي ألحقها بالمدينة كمكوّن سردي حالة المدن الجزائريّة إبان العشرية السوداء.

الكلمات المفتاحية: فضاء؛ رواية؛ مدينة؛ جمالية؛ سرد.

Abstract :

This study seeks to reveal the artistic components and aesthetic features of the city's space in the novel "The Ashes that Washed the Water" by Izz al-Din Jalawji. It is influenced by the rest of the narrative elements, such as time, event, and personalities. This paper will also aim to reveal the poetic manifestations of the element of place in the events of the aforementioned novel, aiming through that to investigate the aesthetic and poetic touch that the city space adds to the general narrative imagination.

On this basis, we pose the following problem:
How was the theme of the city manifested in the model novel? And what indications does it provide in addition to the general narrative imagination?

In order to answer this problem, we tried through research to present conceptual fragments about the nature and types of place, while highlighting the open space corresponding to the theme of the city. In the chapter on the poetics of place in the theoretical novel and on the narration of the ashes that washed the water in the practical aspect, let us finally reach a number of results, perhaps the most important of which are:

-The place is a narrative element and an important component of the narrative structure.

- The theme of the city as a narrative space in the model novel combined the meanings of wandering, loss, corruption, dissolution, oppression and injustice.

- The author diagnosed, through the indications he attached to the city as a narrative component, the state of Algerian cities during the black decade.

KeyWords: space; a novel; city; aesthetic; Narrative.

*المؤلف المرسل

المقدمة:

إنّ الرواية هي ذلك العالم الجميل، أحداثا، وشخصيات، وأزمنة، وأمكنة، وما يميّز كلّ هذه العناصر ويمدها صفة الجمالية، من روعة في الخيال و جمال في الكلام، ولعل هذا أكثر ما يجعلها من أهمّ الأجناس الأدبية انتشارا وقراءة وطلبا في هذا العصر، ناهيك عن بنائها الفنّي وهيكلتها الكاملة النّاضجة بدءا من العنوان إلى آخر مقطع، وهي – الرواية أقصد– بهذا قد فرضت نفسها كعمل فنّي على الأديب والقارئ والنّاقد، ولعلّ ما ضمن لها هذه المكانة ذلك التكامل الملموس في كلّ رواية بين عناصرها، ولا عجب، فكلّ متن أدبيّ لا بدّ أن يحتوي ويضبط ما يحقق له أدبيته وجماليته وشعريته.

نصبو طامحين من خلال هذا المقال إلى خوض تجربة في مجال الشعرية، باعتباره واحدا من كثير من المجالات التي انكبّت بالدّراسة على فنّ الرواية، وهذا انطلاقا من عمل أدبيّ فنّي جزائري، نخص بالذّكر هاهنا رواية "الرّماد الذي غسل الماء" لصاحبها عزّ الدّين جلاوجي، الذي ضمن لنفسه مكانة في السّاحة الرّوائية الجزائريّة والعربيّة ، وذلك من خلال أعماله وإنتاجاته الأدبيّة، مستهدفين الإجابة على الإشكاليات الفرعية التالية:

– ما هي الأنواع والتصنيفات البارزة لعنصر المكان كجزء من النسيج السّرديّ؟

– ما الدّور الذي يحتلّه المكان في إبراز اللّمسة الجمالية للعمل الأدّبي؟

– ما الصّلة التي يمكن أن نستشفّها بين الرواية والمدينة ؟

– ما الصّورة أو الصّور التي رسمها جلاوجي للمدينة في روايته؟

لعلّنا نصل من خلال هذه الورقة البحثية إلى التعرف على أنواع عدّة من الأماكن خاصّة ما يقوم منها على التقابل من باب الثّنائيات كالطّبيعيّ والصناعي والعام والخاص والمفتوح والمغلق، وهو ما يجعلنا نحكم بتلك الأهميّة البالغة التي يكتسيها عنصر المكان في إبراز أدبية العمل الروائي وجماليته نظير ما يجسّدة من معان مختلفة، لنسلّط الضوءبعد ذلك على المدينة كفضاء من حيث مفهومه وعلاقته بالرّواية، وهذا ما يمهّد لنا استنباط اللمسات الشعرية والجمالية لفضاء المدينة كما وظّفها جلاوجي في رواية "الرّماد الذي غسل الماء".

ونردّ اهتمامنا بهذا الموضوع إلى الإقبال الكبير والمنقطع النّظير على جنس الرّواية من طرف الباحثين والنّقاد ولا سيما القرّاء، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على خصوبة وعذارة هذا الفن، إضافة إلى أسباب شخصيّة قد نردّها إلى الإعجاب بالمنطلقات الفكرية للروائيّ جلاوجي وتصوّراته الأدبيّة.

من بيّن عناصر الرّواية سلطنا الضوء على المكان الذي يعتبر من أساسيات السّرد والفنّ القصصي والرّوائي، فهو الفضاء الذي يحتضن أحداث كلّ عمل أدبيّ، وفيه تتحرّك شخصياته ومنه تستمدّ ملامحها وتنجز أفعالها، وهو عنصر فاعل في بناء المغامرة الحكائيّة ونموّها، وفي ذلك نجد الكثير من القصص والرّوايات استمدّت من حال المكان مادّتها (السلامي، 2007، صفحة 53) وعليه فالمكان هو من يوصل الإحساس بمعنى الحياة عبر وظيفته، كونه مركزا للحدث وعنوانا للشخصيّة من خلال إبراز سماتها وانتمائها الاجتماعيّ، فضلا عن الأفكار التي يحملها، لذا فهو يتداخل مع عناصر العمل القصصيّ متأثّرا بها ومؤثّرا فيها بغية تحقيق الوظيفة الشّعرية من خلال اللّغة النّصية التي تعتمد انزياح المكان وتجعله متخيّلا (السعدون، 2012، صفحة 12)، ولما كانت المدينة واحدة من الأماكن التي ترتبط بالرّواية ارتباطا وثيقا جُعلت محور الدّراسة ومركز البحث من بين الأماكن والفضاءات الأخرى.

من هذا المنطلق تبرز الأهمّية البالغة التي يحتلّها عنصر المدينة بالمقارنة مع بقيّة العناصر الأخرى المتعلّقة بالفضاء السّرديّ في بناء الصّورة الحكائيّة، ورسم صور الشّخصيات وملامحها بكل تمفصلاتها، ولا عجب أن يكون هذا السبب كاف لنصبّ اهتمامنا على هذا العنصر المهم.

لتحقيق الأهداف المرجوّة مكن هذه الدّراسة حاولنا أن نجعل الدراسية نظرية في البداية نحدّد فيها مفاهيم الدّراسة، ونقف على مفهوم المكان، تصنيفاته وأنواعه، ثمّ تحديد موضع المدينة في ذلك وعرض نتف فكرية نظرية مفاهيميّة حولها، وكلّ ذلك وفق ما جاد به أهل الاختصاص، يعقب ذلك جزء تطبيقيّ يستجلي اللّمسات الشعرية والجمالية لتيمة المدينة في الرواية النموذج، نردف الجانبين بعد ذلك بمجموعة من النتائج المتحصّل عليها من الدّراسة والتي نذكر من جملتها:

– تبوّأ المكان منزلة هامّة في العمل السّردي المعاصر، وما يعكس ذلك تلك الجهود الحثيثة التي تبنّته بالدّراسة.

– للمدّينة علاقة وطيدة بالإنسان، وهذا ما ساعد المؤلّف على تخطيبها وشحنها بالكثير من الدّلالات.

– جسّدت تيمة المدينة في الرّواية النّموذج معاني التيه والضياع والفساد والانحلال الخلقي والطّبقيّة.

– تمكّن المؤلّف بأسلوبه السّاخر من تصوير المدينة بكلّ حيثياتها في ذهن المتلقّي، وهو ما دفع دائما عجلة الحكي إلى الأمام.

I. مفاهيم الدّراسة:

1– المكان:

1–1– المفهوم اللّغويّ للمكان:

جاء في لسان العرب:المكان والمكانة، واحد ... والمكان : الموضع، والجمع أمكنة، وأماكن: جمع الجمع، كما أنّ العرب تقول: كن مكانك، وقم مكانك، واقعد مكانك، فقد دلّ هذا على أنّه مصدر من كان، أو موضع منه (منظور، 1992، صفحة 132).

ولأنّ المكان هو موضع، يكون محلّ وقوع الوقائع، وحدوث الحوادث، وحصول الحركات، ووجود المخلوقات، ومعنى الإحاطة بالوجود هو نفسه الذي يتكرّر من معجم لآخر، على اختلاف اتجاهات علماء اللّغة، وجامعيها من أصحاب المعاجم (الأحمر، 2009، صفحة 20)

لم تختلف المعاجم العربيّة في مجملها على ما أسند للفظ (مكان) من معان، حيث نجد في معجم اللّغة والأعلام: المكان جمعه أمكنة وأمكن، وجمع أماكن، ويقال هو من العلم بمكان، أي له فيه مقدرة ومنزلة، ويقال هذا مكان هذا أي: بدله. (جبريل، 2000، صفحة 09)

ما تشترك في المعاجم كلّها أنّها تضمن لمفهوم المكان لغة أكثر من معنى وأكثر من دلالة، ولعلّنا نرجع ذلك إلى ارتباطه بما هو موجود فيه محسوسا كان أو معنويا.

1–2– المفهوم الاصطلاحيّ للمكان:

عرّفه أرسطو بأنّه الحدّ اللّامتحرّك المباشر الحاوي، أو السّطح الحاوي من الجرم الحاوي، المماس للسطح الظّاهر للجسم المحويّ (مرحبا، 1987، صفحة 171)،ولا يبتعد عنه أفلاطون كثيرا، فقد رأى هذا الأخير بأنّ المكان هو الحاوي للموجودات المتكاثرة، ومحلّ التغيير والحركة في العالم المحسوس، عالم الظّواهر الحقيقيّ (المعطي، 1994، صفحة 124)، أي أنّ المكان من خلال ما سبق هو ذاك الفضاء الذي يحوي الأشياء ولا يستقلّ عنها، يتشكّل بها ويتحدّد من خلالها.

هذا وقد حذا الفلاسفة المسلمون غالبيتهم حذو الفلسفة اليونانيّة وبخاصّة الأرسطيّة منها، نذكر منهم على سبيل المثال الكنديّ، الفارابيّ، إخوان الصّفا وغيرهم، حيث أجمع هؤلاء ومن تبعهم أنّ المكان هو الفراغ المتوهّم الذي يشغله الجسم وينفذ فيه أبعاده، ويرادفه الحيز (صليبا، 1982، صفحة 412)،هو قرين الحياة الأساسيّة، بل هو مادّتها، فهو الذي يقترح الفعل ويسمح به، وهو الذي يقع الفعل عليه ويتحتّم، والفعل صانع الذّات، وصانع

الحياة للكائن البشريّ، ولا سبيل إلى ترجمة مزاولته للحياة إلّا بالانطلاق منه والارتداد إليه (زايد، 2003، صفحة 475).

من خلال ما سبق مجملا يتضح حقيقة أنّ المكان هو البيئة التي يعيش فيها الإنسان، وكل إنسان وليد بيئته، تؤثّر فيه وتتأثّر به، لا يمكن الفصل بينهما، ولا يمكنه أن يكون بمعزل عنه، ذلك أنّه الحيز الذي يجب أن يكون فيه بمواصفات خاصّة تختلف عن غيرها تساهم رفقة أقواله وأفعاله في ترجمة دلالات مختلفة.

1-3- المفهوم الفنّي للمكان:

اهتم الأدباء والنقاد بعنصر الماكن في الأعمال الفنيّة، بل وأضحت علاقة المكان ببقيّة عناصر العمل الأدبي قضية تستقطب حبرهم، ذلك أنّ المكان حقيقة معاشة، يؤثّر في البشر بنفس القدر الذي يؤثرون به فيه، ولا وجود لمكان فارغ أو سلبيّ، وكل مكان يحمل في طياته قيما، فيفرض كلّ مكان سلوكا خاصّا على النّاس الذين يلجؤون إليه.

في الرّواية يعدّ المكان بمثابة الأرضيّة التي نستشعر بها جزئيّات العمل، وإن وَضُحَ المكان وضح الزّمن الروائي، وبالتالي يكون المكان طريقة لرؤية النّص السرديّ (النصير، صفحة 39)،أي أن الأحداث متعلّقة بالأمكنة أساسا، بوجود الأول يكون الثّاني والعكس، ثم إن ضرب مثل ها هنا كاف لتوضيح الفكرة، فلو عرف السّامع أن مكان الأحداث هو السجن أو المستشفى لكان سيخمّن ماهية النّصّ السردي أو حتّى طبيعة الأحداث ولم لا لغة الحوار وحتى صور الشخصيات التي ستؤدّي الأحداث، من هنا تبرز أهمّية المكان في الأعمال الفنّية من الجانب الأدبيّ.

II. أنواع المكان:

من خلال ما تقصيت من معلومات في هذا الباب وجدت أغلب النقاد يقفون في تصنيفهم لأنواع المكان على ثنائيتين هما (الانغلاق / الانفتاح)، (الألفة /المعاداة) وعليه أقتصر في تصنيفي على ما يتعلّق بهما.

1- ثنائيّة مكان (مغلق / مفتوح):

1-1- المكان المفتوح:

هو ما كان متضمّنا لمساحات هائلة كبيرة، توحي بالمجهول، تكون متاحة لجميع الشّخصيات الروائيّة، لا تحدّها حواجز وتسمح للشخصيّة بالتطوّر والحريّة (لحميداني، 1991، صفحة 162)، من أمثلة ذلك الأحياء الشعبية والشوارع وكل ما من شأنه أن يحضن الوجود الإنسانيّ سواء دلّ عل معان إيجابية كالحياة والأمن والسمو والإرادة أو دلّ على معان سلبيّة كالضياع والاغتراب والوحدة وغير ذلك من معان، ولعل فضاء المدينة واحد من الأماكن المفتوحة كونه يتميّز بالخصائص المذكورة سلفا.

1-2- المكان المغلق:

وهو ذلك الحيز الذي تحدّ مساحته وتعدّد مكوّناته، حيز يقضي فيه الإنسان أكثر وقته غالبا، ويبقى فيه فترات طويلة، كالبيت مثلا،قد تكون الأماكن المغلقة دليلا على الأمان والألفة والراحة والدفء، وقد تكون مصدرا للخوف والرعب والوحدة والحزن، لذلك يهدف المكان المغلق غالبا للدلالة على تلك العلاقة الرّابطة له بالشخصية القصصية أو مجموعة من الشخصيات أو حتى المجتمع وذلك بالنظر لمجالات مختلفة اجتماعيا ،ثقافيا وحتى سياسيّا، يعرّف الشريف جبيلة الأمكنة المغلقة بكونها تلك التي ينتقل بينها الإنسان ويشكّلها حسب أفكاره، والشكل الهندسيّ الذي يروقه ويناسب تطوّر عصره، وينهض المكان المغلق كنقيض للمكان المفتوح، وقد تلقف الروائيون هذه الأمكنة، وجعلوا منها إطارا لأحداث قصصهم ومتحرّكا لشخصياتهم (حبيلة، بنية الخطاب الرّوائيّ، 2010، صفحة 204).

المكان المغلق يتنوّع ويتعدّد، منه ما هو أليف كالمنزل للأسرة والقصر للحاكم، نجمله بقولنا المأوى عموما، وهو ضرورة اجتماعية، كما نجد أمكنة أخرى أليفة لكنها ليست ضرورية إنما اختيارية كالمقهى مثلا أو الأماكن الشعبية التي يقصدها الناس لتمضية الوقت، ونصنّف بمقابل المكان المغلق الأليف ذلك الحيز المغلق المخيف وهذا غالبا يكون إجباريا لا اختياريا إذ لا نجد عاقلا يختار أن يكون حيث الخوف والحزن والضيق، هذه الأماكن تجسّد عدم حريّة الحركة والتعامل مع المجتمع والانتقال بين الفضاءات المكانية المجسّدة في الرواية، ومثال ذلك السّجن بتعدّد مفاهيمه وأشكاله على حسب الشخصية القصصية.

2- ثنائية مكان (أليف / معادي) :

2-1- المكان الأليف :

يعرّف غاستون باشلار في كتابه (جماليات المكان) هذا النوع من الأمكنة على أنه الذي نحبّه أو هو المكان المرغوب فيه، ترتبط قيمته بقيمة الأمان التي يمتلكها هذا المكان، قيمة يمكن أن تكون إيجابيّة أو متخيّلة، وسرعان ما تصبح هي القيم المسيطرة، وهو كذلك المكان الذي ينجذب نحوه الخيال (باشلار، 1984، صفحة 31)، وعليه فإنّ المكان الأليف هو ذلك المكان المتواضع على حبّه والميل إليه بين النّاس حيث يرسمه الروائيّ موافقا للشخصيّة الروائيّة من هذا المنطلق.

2-2- المكان المعادي:

نوّه غاستون باشلار في كتابه السّابق لهذا النوع من الأمكنة، حيث سمّاه كذلك بالمكان العدائيّ، وقال بأنّه مكان الكراهية والصّراع، ولا يمكن دراسته إلا في سياق المواضيع الملتهبة انفعاليا والصور الكابوسيّة، (باشلار، 1984، صفحة 31) ولعلّ هذا الاتجاه مردّه إلى ذلك الحضور الواسع للمكان المعادي في السياقات التي يكون فيها تكافؤ بين الخير والشر أو بين الحق والباطل أو بين كلّ ما هو إيجابيّ وسلبيّ، وينقص ذلك الحضور كلّما كانت المعادلة غير متوازنة بين الطرفين لصالح العنصر الإيجابيّ.

III. المدينة والرّواية:

للمدينة طابع خاصّ جدا في الرواية، خاصّة وأنّ هذه الأخيرة لها علاقة وطيدة جدّا بالمكان كعنصر سردي، والناظر إلى الأعمال الرّوائيّة المعاصرة يجد تلك العلاقة المتبادلة بين الرواية والمدينة، علاقة تواصل وتبادل وتناقض، علاقة تضمّ في كثير من الأحيان طرفا ثالثا هو الشخصيات المجسّدة لأدوارها بالمدينة، ينتج عن امتزاج هذه العناصر الثلاثة وعي بالمحيط وبالوجود نفسه، فالمكان يحتوي الزمان الماضي والجماعة الإنسانيّة والعلاقات المتشابكة بين أفرادها (الرؤوف، 2017، صفحة 19)، وهذا ما يرسم تلك اللّمحات الدلالية المتعالقة في ذهن المتلقّي، فالرّواية نتاج علاقات تتفاعل في المدينة بكلّ ما تعنيه الأخيرة من مظاهر عمران ونمط حياة واختلاط بين البشر وانفتاح على الآخر، فإنّ المدينة تبدو حاضنا لها من جهة وفضاء لسردها من جهة ثانية، فضاء لأحيائها وأزقّتها وشوارعها وحواريها وأحلام ساكنيها وحكاياتهم وشروط حياتهم وتفاعلهم وتآلفهم معا واغترابهم فيها وعنها ومواقفهم منها وكشفهم لجماليتها وقبحها (الرؤوف، 2017، صفحة 55)، لذا كثيرا ما نجد المدينة في تشكّلها ورسمها وطبيعتها داخليا وخارجيا تعبّر عن تطلّعات سكّانها وعن حالتهم الظاهرة والباطنة، ولعلّ جلاوجي استطاع بحقّ أن يرصد صورة مجتمع مدينة عين الرّماد من خلال الملامح التي قدّمها للمدينة وما تحتويه أو ما يحيط بها، فهو كغيره من الروائيين المعاصرين أدرك أنّ المدينة ليست مجرّد بنايات وشوارع وأسوار وحوار وميادين، ولكنّها أيضا روح خلّاقة تتبلور في شكل تجليّات متعدّدة منها اللّغة والأسطورة والتراث والمقدّس والفنّ والأدب (الرؤوف، 2017، صفحة 21)، كما أنّ الإهمال الروائيّة المعاصرة انتفضت لتعبّر عن ماضي المدن وترصد أزمنتها، فتعيد نبش الماضي أو تكشف البراقع عن الحاضر أو ترسم ملامح للمستقبل، وكلّ ذلك بهدف تقديم إجابات لتساؤلات المتلقّي الضمنيّة حول قيمة وهويّة المكان وعلاقته بالوجود الإنسانيّ، وقد جسّد جلاوجي ذلك في رواية الرّماد الذي غسل الماء، فكان – وهو يرسم ملامح الأمكنة المتعلّقة بالمدينة- يعود بالمتلقّي إلى أيام الاستعمار الفرنسيّ أو بدايات الحرب الأهليّة في الجزائر، فيدفعه إلى المقارنة والموازنة بين الماضي والحاضر، ليستجلي عن قرب مسار تلك الأماكن ومعاناتها إلى جانب الإنسان في تلك المدينة.

إنّ المدينة التي تتجسّد على صفحات الرّواية سواء كانت واقعيّة حقيقيّة أو رمزيّة خياليّة ما هي في الحقيقة إلّا تحويل لغويّ وسرديّ ينضوي تحت إطار استراتيجيّة الكتابة الرّوائيّة، وخصائص خطابها، وتفرّدها الجماليّ، لترسي بذلك المرجعيات الثقافيّة والعمرانيّة والحضاريّة للمدينة، فالرّواية لا تميّز ثقافتنا بشيء مقدار ما تميّزها بالطّريقة التي تعكس هذا التوجّه المتميّز للفكر الحديث (واط، 1991، صفحة 23)، ومن تلكم الطّرق صورة المدينة في الرواية.

IV. تجليات المدينة في رواية "الرّماد الذي غسل الماء":

تدور أحداث الرّواية في مدينة تسمى " عين الرّماد" وبعض ما يحيط بها، لكنّ جلاوجي جعلها مركز الصّراعات التي تضمّنتها الرّواية، طالما اتخذها المؤلّف محطا للسخرية والذمّ لما تحتويه من مظاهر خنا وخلاعة، يقول:

" **ومدينة عين الرّماد كالمومس العجوز، تنفرج على ضفتي نهر أجدب أجرب تملأه الفضلات التي يرمي بها النّاس والتي تتقاذفها الرّياح.. تتدرّج فيها البنايات على غير نظام ولاتناسق... يسدّ عليها الرّيح من**

الجنوب أشجار غابة صغيرة ... تعاود الانحدار على جبل صغير تشقّه طريق معبّد، تنزّ قريبا منها عين الرّماد الأصليّة التي قيل إنّ السّكان قد هجروها واتّخذوها مزارا ومعبدا ... وتمتد المدينة من الجهة الأخرى المرتفعة قليلا ثمّ مستوية ثمّ هابطة إلى أسباخ نخرة..." (جلاوجيّ، 2004، صفحة 11)، حاول جلاوجي من خلال هذا المقطع وضع المتلقّي أمام مدينة عين الرّماد كحيّز جغرافي له معالمه وحدوده ، إلّا أنّه رسم تلك المعالم بأسلوب ساخر يجعل المتلقّي يتساءل حول تلك العلاقة بين هذا الطرح وبين ما تحويه المدينة من شخصيات ومظاهر، خاصّة وأنّه اعتاد استحسان النّاس للمدن التي تحيط بها الأشجار وتقف على حافّتها الأنهار، إلّا أنّ هذا لم يستهو المؤلّف ولم يمح من عينيه تلك الصّورة السّوداء لهذه المدينة البائسة.

" **تمتلئ مدينة عين الرّماد بالحفر وببرك المياه القذرة... يتوسّطها سوق منهار السّور... تتلوى شوارعها وأزقتها التي تضيق وتتسع في غير نظام ... إلى جانب من جنوبها تمتدّ مساحة كبيرة مستوية تلتصق بالمدينة ثمّ تغوص في الغابة ... وحدها هذه الجهة تقوم بها بنايات أنيقة ومنظّمة أقامها الفرنسيون يوم أسّسوا المدينة التي سمّوها (la belle ville) المدينة الجميلة، وما فتئت الكتل الاسمنتية تتكتّل حولها كخلايا سرطانية حتّى شوّهت كلّ ما حولها من هكتارات ضخمة**" (جلاوجيّ، 2004، صفحة 12)، زاد هذا المقطع صورة المدينة سوءا وسوادا في مخيّلة المتلقّي، فالمؤلّف عمد إلى أن يلحق بها كلّ سمة سلبيّة، إنّه لا يجد فيها أي ملمح إيجابيّ ولا يرى فيها إلّا ما يوحى بالتقهقر والانحدار والتخلّف والهوان والخمول والكسل عدا تلك العمارات المتناسقة في إحدى جهات المدينة، وهو يجعل المتلقّي بهذا مشكّلا لتصوراته المبدئيّة حول هذا الفضاء المفتوح وما يحتويه من فضاءات مغلقة، ملقيا على نفسه الكثير من الأسئلة التي تتعالق بدرجة كبرى مع شخصيات الأحداث المتعلّقة بالمدينة كفضاء سرديّ.

" **وغادر أفراد الشرطة ثلاثتهم المكان في سيارتهم المدنيّة والحيرة تعصف بهم جميعا ... وكان الحنق رعدا مدمدما في فجاج سعدون الضّابط، أيّ قدر رمى به في هذه المدينة المسخوطة؟ أهذه هي مدينة الواق واق التي قرأ عنها في قصص ألف ليلة وليلة؟ ما معنى أن تسمى مدينة عين الرّماد؟ ومتى كان للرماد عين؟ ومتى كان للعين رماد؟**" (جلاوجيّ، 2004، صفحة 29)، عجّ هذا المقطع بالإيحاءات والدّلالات التي ساقها المؤلّف على لسان شخصيّة الضّابط، فهو لم يستسغ كلّ شيء فيها، جرائم كثيرة وغامضة وفساد لم يعهده من قبل، حتى إنّه لم يتقبّل التسمية إطلاقا، إنّ المؤلّف من خلال هذا المقطع بثّ الكثير من دلالات الرّفض والإنكار لهذه المدينة، فجعل الضّابط كأنّه مجيب على قسم من التساؤلات التي طرحها المتلقّي أثناء غوصه في أعماق النسيج السّرديّ، حيث أبدى ذمّه للمدينة جرّاء اختفاء جثّة من مكانها، فردّ اللوم والشؤم على أصحابها، وهنا تتشكّل تلك الصّورة بجزئياتها واحدة تلو الأخرى في ذهن المتلقّي، فتبرز المدينة ميدانا للصّراع بين الحقّ والباطل، وما تصوير المؤلّف لتيمة المدينة في صور سلبيّة إلّا لطغيان الباطل وأهله على الحقّ في أكثر أحداث الرّواية.

" **وحين تخرج من مدينة عين الرّماد جنوبا تنهض غابة الصّنوبر في وجهك، تدثّر ضفتي الجبلين الصغيرين ثمّ ما تفتأ أن تبدأ في الانطفاء رويدا رويدا فاسحة المجال لفضاء يتنفّس بعمق، وربوة صغيرة**

عليها شجرة يتيمة لا يدري أحد من أيّ نوع هي، ولا في أيّ مكان غرست وتحتها تنبع عين ماء شحيحة، قيل إنّها مربض أحد الصّالحين ...ثم تكاثر النّاس حوله، ودبّ الفساد بينهم فاختفى الشيخ صالح.... وقيل إنّه غار في عين الماء ومذ ذاك جفّت المياه المتدفّقة وحال لون الشّجرة العجيبة وفقد ثمارها على الأبد... وقيل إن العين رمتهم بحمم من الرّماد أياما وليالي حتى انفضّوا من حولها وأقاموا مدينتهم بعيدا عن العين التي استمرّت تدمع تحت الشّجرة الحزينة... ومذ ذاك سمّيت مدينتهم عين الرّماد" (جلاوجيّ، 2004، صفحة 36)، في هذا المقطع الوصفيّ يعمد المؤلّف إلى الرّبط بين الرّاحة النّفسيّة والابتعاد عن المدينة، وفي هذا شحن للنسيج السّردي بالكثير من الدّلالات والإيحاءات المتعلّقة بسوداوية هذا المكان،فصورة المدينة تضمّ كلّ معنى سلبيّ إليها كلّما تقدّم المتلقّي في رحلة كشف أغوارها، حتى إنّ التسمية أرجعها المؤلّف إلى تحوّل عين ماء إلى عين تذرّ الرّماد تطرد أصحابها المنطقة إلى موضع آخر، ومنه يطلق على المدينة تسمية "عين الرّماد"، ولعلّ المتلقّي يستجلي من هذا الطرح أنّ هذا التحول في طبيعة العين يقابله تحوّل النّاس في طبائعهم ومعاملاتهم وأخلاقهم في ذات المنحى الذي سلكته العين من إغداق الخير على النّاس ماء إلى مصدر لذرّ الرّماد وتشتيت النّاس.

" **وسهرت مدينة عين الرّماد إلى الصّباح فرحا بالنّصر المؤزّر على الفريق المصريّ، وبات المختصّون على شاشة التلفزة يحلّلون كلّ صغيرة وكبيرة في المقابلة، وباتت الأهازيج والأغاني تبثّ دون توقّف**" (جلاوجيّ، 2004، صفحة 92)، في هذا المقطع يبوح المؤلّف بأسباب نقمه على المدينة وذمّه لها، فأهلها لا يفوتون فرصة لمعاقرة الخمور ومعاكسة الحسان بإيعاز من كبراء القوم، والصّفة هنا خلّفها الغنى لا العلم والشرف، بل حتى فقراء المدينة وأراذلها لا يفوتون مثل هذه الفرص، نستثني من ذلك قلّة مغلوبة مثل "فاتح اليحياوي"، وهي التي تمثل بقايا الخير المنتظر سطوع شمسها يوما ما، شمس تلبّدت سماؤها بغيوم الرشوة والتسلّط والظلم والزور فلم تسطع أنوارها على جدران مدينة عين الرّماد وساحاتها. إنّ الصورة التي يقدّمها جلاوجي عن المدينة من خلال هذا النّموذج المطروح في روايته ذات صلة وثيقة بالمجتمع إبان تلك الفترة من تاريخ المجتمع الجزائريّ، هذا الأخير الذي تلقى ضربة ثانية طمست ما تبقى من قيمه وعاداته وأخلاقه، وأعني بها الحرب الأهلّية التي قلبت موازين العدل والحقّ في البلاد، حيثّ كمّمت الأفواه ورهنت الأصوات وسلبت الحريّات فطغى الظالم على الضّعيف، وحل الجاهل محلّ العالم، وقام السّفيه يقود القوم إلى حتوفهم، وهذا ما صوّره جلاوجي في هذه الرّواية مسقطا تلك المعاني كثيرها على تيمة المدينة كفضاء مفتوح يحوي فضاءات أخرى مغلقة تدور بداخلها مظاهر التخلّف الذي ألحقه المؤلّف بالمدينة أخيرا.

" **كلّ البشر سيّان... نسخة واحدة ... ليس فقط سكّان مدينة عين الرّماد .. أمّا المدينة المثاليّة فلا وجود لها إلّا في أذهان الفلاسفة والأدباء**" (جلاوجيّ، 2004، صفحة 107)

" **أجنّ فاتح اليحياوي لأنّه اتّبع سبيل الفلسفة وتعمّق في دراستها؟ أم لأنّه يعيش في مدينة عين الرّماد التي لا تصفّق إلّا للبلهاء**" (جلاوجيّ، 2004، صفحة 121)

كانت هذه الكلمات من امرأة ذاقت طعم المرارة الذي عكر حلاوة حياتها بعد سجن زوجها ظلما وقهرا، فصبّت سخطها على البشر أجمع، و على المدينة وشعبها بوجه خاصّ، ولعلّ المؤلّف يحاول الوصول بالمتلقّي إلى اتخاذ نفس الموقف اتجاه مدينة عين الرّماد، كما أنّه يزيد من توضيح الصّورة العامة التخييليّة للمدينة كفضاء فاعل في بناء النسق السّردي، ولنا أن نلحظ تلك العلاقة التي أضحت قائمة بين الفضاء والشخصيات و الرواية بشكل عام، ممّا يؤكّد أنّ عناصر الرّواية تتظافر فيما بينها لتصل بالمتلقّي إلى المتخيّل السّردي العام.

" **مدينة عين الرّماد كالمطلّقة الكلّ يطمع فيها** " (جلاوجيّ، 2004، صفحة 123)، لقد حاول المؤلّف من خلال هذا المقطع أن يصوّر المدينة في صورة الضحيّة بعدما برع في ذمّها وتحقيرها في ذهن المتلقّي من خلال ما سبق ذكره من أمثلة، فحوّل بطريقة فنيّة جميلة قائمة على التشبيه الجرم على كلّ من لم تسفعه الوطنية والإنسانيّة فعمد لى العبث والفساد في الأرض، ينهب البلاد والعباد، ويهتك الستر والشرف، وينتهك الحرمات والقيم، فأظهر المدينة في صورة المرأة المطلّقة التي هي محلّ أطماع ذوي النّفس الجشعة، أصحاب النزوات العابرة، الذي تسبق شهواتهم عقولهم، فيتحوّل بذلك حال المتلقّي من ناقم إلى مشفق، ومن عاذل إلى ملتمس للأعذار.

" **ودار في خلده أنّ سكّان مدينة عين الرّماد هم أمهر البشر في لعب الدومنو .. فلماذا لا تقيم المدينة ألعابا عالمية هنا** " (جلاوجيّ، 2004، صفحة 145)، ارتبط هذا الأمر بفضاء مغلق وهو المقهى محتوى في المدينة كفضاء مفتوح، والغالب أنّ المؤلّف أراد أن يسوق للمتلقّي تلك الصورة الكئيبة عن هذه المدينة، إذ الماهر بالشيء قد تعوّد وتمرّن عليه، ولما كان الجلوس في المقاهي ومعاقرة طاولات الدومنو هو الشغل الشّاغل لسكان المدينة، ولا عجب فالآفات الاجتماعية كلّها اجتمعت في هذه المدينة من جهل وبطالة وتسوّل وإدمان وتهريب وغيرها، فالمؤلّف استطاع من خلال هذا المقطع التعبير بإيجاز شديد عن الكثير من الدّلالات والإيحاءات المتعلّقة بالمدينة وأهلها، كما تمكّن من تشخيص الصورة التي يعيشها سكان مدينة عين الرّماد، وهذا أضاف جماليّة بالغة للرّواية وارتقى بالمتلقّي على أفق يمكن من خلاله الاطلاع على ما بين سطور الرّواية من معان ودلالات.

" **من أكثر الكلمات التي شاعت بين أغنياء مدينة عين الرّماد، الزّواج على سنّة الله ورسوله، حتى إنّ إمام المسجد اتخذ موضوع تعدّد الزوجات محورا لدروس متتالية**" (جلاوجيّ، 2004، صفحة 162)، إن كان أمر التعدّد في الزوجات أمرا مباحا حلالا في ديننا فهذا موقف يتفق فيه الجميع، لكنّ الكاتب لم يسقه ليؤكّد ذلك أو ليفتح باب نقاش عقيم لا يسمن ولا يغني من جوع، إنّما ليبيّن أنّ الفساد قد طال أئمّة المساجد أنفسهم، وأنّ هذه المدينة بائسة بقاطنيها ذميمهم وحميدهم، فقد جعل الإمام في صورة المشرّع والمسوّغ لما أقدم عليه الجنرال، وكأنّه المدافع عنه بطريقة غير مباشرة، رادّا كلام النّاس و ما يلحقه من تأويلات بين الواقع والافتراء. إنّ السمة الجمالية والشعريّة في هذا المقطع هو تلك الطريقة التي استطاع من خلالها المؤلّف أن يوضّح صورة تيمة المدينة بشكل أبرز ليس فقط من خلال مصادر السوء فيها، بل حتى من خلال الرجال الذين تظنّ فيهم الثّقة والعدل واتّباع الحقّ وإبطال الباطل.

" **عمد علماء الآثار إلى البحث عن مدينة عين الرّماد فلم يجدوا لها أثرا فأجزموا أنّها لا تعدو أن تكون قصّة نسجت خيوطها مخيلة أحد الأدباء ثمّ نشرها إلى النّاس لتكون عبرة لهم ولأبنائهم من بعدهم**" (جلاوجيّ، 2004، صفحة 287)، لقد بيّن المؤلّف من خلال هذا المقطع أنّ الفضاء الدّلاليّ للمدينة لا يعدو أن يكون صورة رسمتها مخيّلته بكلّ ما تتضمّنه من تمفصلات، فهي ليس حيّزا جغرافيا حقيقيّا، كما أنّه لا يستبعد أن تكون هذه المدينة محاكاة لمدينة حقيقيّة واقعيّة غيّر المؤلّف معالمها كما يريد وفق الواقع الذي يراه، فأصبحت بذلك فضاء دلاليا خياليا نسجه الكاتب لتنشط فيه مختلف الشّخصيات الفاعلة في هذه الرّواية.

V. الخاتمة:

في ختام هذه الورقة البحثية نحاول أن نسوق جملة من النتائج والاستنتاجات التي استطعنا الحصول عليها والتوصّل إليها بعد العرضين النّظريّ والتّطبيقيّ:

- يشكّل المكان عنصرا مهمّا في النّسيج السّرديّ، أهمّيته لا تقل عن غيره من العناصر الأخرى من زمان وشخصية وغيرها.
- اختلفت وتعدّدت تصنيفات المكان باختلاف الدّراسات، تباينت حينا وتداخلت أحيانا أخرى، فتجد المكان الواحد في العمل الروائي يحمل أكثر من صفة إذا ما أسقطناه على تلك التصنيفات.
- لا يمكن بأي حال من الأحوال تشكيل المعنى العام للرّواية بمعزل عن إبراز الدّلالات المختلفة للأماكن الموظّفة في العمل الرّوائي، بالمقابل هذه الخطوة الأخيرة تثري المعنى العام للرواية كلّ الإثراء، بل هي كفيلة بخلق المعنى المراد توليده في ذهن القارئ – نسبيّا–
- للمكان دور فعال في تماسك النّص الرّوائيّ، فهو قوّة نصيّة فعّالة، لا يخفى دوره في أيّ عمل أدبيّ
- لتيمة المدينة حضور بارز في الرّواية المعاصرة، بل يمكن أن نعدّها من محطّات التجريب الرّوائيّ في الأعمال السّرديّة المعاصرة.
- فضاء المدينة كمكان مفتوح في رواية " الرّماد الذي غسل الماء" ساهم بشكل بارز في تشكيل المعنى العام للنسيج السّرديّ.
- استطاع المؤلّف من خلال روايته رسم صورة واحدة من زوايا مختلفة لفضاء المدينة، وهو ما أبقى المتلقي دائما في تفاعل مع الرّواية.
- جمعت المدينة في الرواية –كفضاء فنّي – معاني التيه والضياع والفساد والانحلال والطّبقيّة والظلم.
- شخّص المؤلّف من خلال تيمة المدينة في الرّواية حالة المدن الجزائريّة غالبيتها إبان فترة الحرب الأهلية التي عرفتها البلاد.
- للمدينة كفضاء مفتوح علاقة بالفضاءات المغلقة المحتواة فيها وبالشّخصيات الفاعلة في الرّواية والتي لها علاقة بحيّزها الفنّي الذي تشغله.

بعد جملة المعارف التي تمّ عرضها والدّلالات التي تمّ التوصّل إليها من خلال العرض التطبيقيّ نجد أنّ المكان كمكوّن سردي مجال خصب رحب للدّراسة والتجريب، وإنّ العمل على تطوير طرق التعامل معه تصويرا وتخطيبا من شأنه الارتقاء بالرّواية عموما، هذا إن نظرنا إلى المكان من حيث عمومه، أمّا بتخصيص الحديث عن الرّواية فيمكن القول إنّ هذا الفضاء يكثر استخدامه من طرف المبدعين والرّوائيين وذلك لما له من علاقة وطيدة بالإنسان، وعليه يستحسن أن تؤخذ هذه النّقطة الأخيرة بعين الاعتبار حال تعامل الرّوائيّ مع هذا الفضاء، مع مراعاة الطّبقة والفئة التي يلقي إليها عمله الإبداعيّ، لأنّه كلّما كان المؤلّف مستحضرا تلك العلاقة بين المدينة كفضاء روائي والإنسان، رابطا بين الخيال والواقع، كلّما كان المتلقّي أكثر فهما للمعنى وخلقا للدّلالة.

قائمة المراجع:

الأحمر ,ف .(2009) .(*دراسات في الأدب الجزائري المعاصر*)ط ..ed 1اتحاد الكتاب الجزائريين.

الرؤوف ,ع .ع .(2017) .*مدن العرب في رواياتهم*)ط .(.ed 1مصر :مدارات للأبحاث والنّشر.

المعطي ,م .ع .(1994) .*قضايا الفلسفة العامّة ومباحثها*)ط .(.ed 2الاسكندريّة :دار المعرفة الجامعيّة.

النصير ,ي .*إشكالية المكان في النّص الأدبي*)ط) .(.ed 1و .ا .والإعلام (.Ed ,بغداد :دار الشؤون الثقافية العامّة.

باشلار ,غ .(1984) .*جماليات المكان*)ط) .(.ed 2غ .هلسا (.Trans ,بيروت ,لبنان :المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات للنشر والتوزيع.

جبريل ,م .(2000) .*المكان)دراسة في القصة والرواية*)ط .(.ed 2مصر :الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميريّة.

جلاوجيّ ,ع .ا .(2004) .*الرماد الذي غسل الماء)رواية* .(الجزائر :دار المنتهى للنّشر والتوزيع.

حبيلة ,ا .(2010) .*بنية الخطاب الرّوائيّ* .

حبيلة ,ا .(2010) .*بنية الخطاب الرّوائيّ* .أربد ,الأردن :عالم الكتاب الحديث.

زايد ,ع .ا .(2003) .*المكان في الرواية العربية)الصورة والدلالة)* (ط .(.ed 1تونس :دار محمد علي للنشر.

صليبا ,ج .(1982) .*المعجم الفلسفيّ*)د ط .(.edبيروت ,لبنان :دار الكتاب اللّبنانيّ.

عبد الدّايم السلامي. (2007). *شعرية الواقع في القصّة القصيرة جدّا* (الإصدار ط1). المغرب: منشورات أجراس.

لحميداني ,ح .(1991) .*بنية النّصّ السرديّ*)ط .(.ed 1الدار البيضاء ,المغرب :المركز الثّقافيّ العربيّ.

مرحبا ,م .ع .(1987) .*من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الاجتماعية*)د.ط .(.edالجزائر :ديوان المطبوعات الجامعيّة.

منظور ,ا .(1992) .*لسان العرب، مادّة)م.ك.ن)* (ط .(.ed 1بيروت :دار صادر.

نبهان حسون السعدون. (2012). *شعرية المكان في القصة القصيرة جدا* (الإصدار ط1). دمشق: تموز للطباعة والنشر والتوزيع.

واط ,إ .(1991) .*نشوء الرواية*)د ط) .(.edم .و .الثّقافة (.Ed ,دمشق ,سوريا.